النظرية السلوكية : نقد وتقدير

للاستاذ يعقوب فام

في المقالات السابقة شرحنا باختصار كثير المقدمات التي ابنت عليها النظرية السلوكية، وفي هذه المقالة سوف نتناول النظرية نفسها بالتقدير والنقد لندل على مواضع قوتها ومكان الضعف فيها

قلنا فيما سبق ان للعلم طريقتين يستعين بهما او باحداهما للوصول الى الحقائق التي يسعى وراءها. والطريقة الاولى هي طريقة المشاهدة وهذه اعمُّ الاثنين جميعاً وتستعمل في جميع العلوم الطبيعية كالكيمياء والطبيعة والفلك وعلم طبقات الارض والعلوم البحرية والمعادن والنبات وعلم الحيوان وخلافه هذه كثير. واما الطريقة الثانية فهي الاستبطان (Introspection) وهي خاصة بالعلوم الاجتماعية كعلم النفس وعلم الاجتماع والاقتصاد. وهذا لا يمنع بالطبع ان العلوم الاجتماعية ايضاً تستخدم المشاهدة والتجربة كباقي العلوم الطبيعية ولكن الاستبطان خاص بالعلوم الاجتماعية دون سواها

والاستبطان قائم على ان العلماء يبحثون في مشاعرهم الخاصة وحالات نفوسهم التي تلازمهم في بعض الاحوال المختلفة، وتحليل عواطفهم ووجداناتهم ومنازع نفوسهم ويتكبدونهُ في سبيل هذه المنازع ثم يبوّبون هذه جميعاً وينظمونها ويقيمون لكل ظاهرة منها حدودها. ليس هذا فقط ولكنهم يتعلمون بالآخرين مستوضحين عن حالاتهم النفسية وما يحسه الغير ويشعر به او يدفعهُ للعمل والنشاط ويجمعون منهم الشيء الكثير ثم يقيسون هذه الظواهر على ما يجدونهُ من نفوسهم هم، وبعد هذا يستخرجون القوانين العامة من هذه الظواهر جميعاً ويقدمونها على انها حقائق ذاتية داخلية يصح ان يأخذ بها العلم ويبحثها لانها تنتاب النفوس المادية. وبالطبع لا يهمُّ سواء اكانت هذه الظواهر النفسية لها وجود موضوعي (objective) مستقل عن الشخصية ام ليس لها وجود مستقل كأن تكون ذاتية داخلية (subjective). والفرق بين الذاتية والموضوعية دقيق ومتصل بالفلسفة اشد اتصال ولسنا نتوخى ان نبحث فيه لانهُ يطوّح بنا في مناحٍ من الكلام تخرج بنا عن حدعلم النفس وانما نحب ان نضرب مثلاً او اثنين حتى نبين الفرق بينهما بشكل اكثر وضوحاً وأقرب الى الافهام. من المعلوم اننا لا ندري للاشياء وجوداً الا عن سبيل الحواس، فالانسان منا في الواقع لا يدري سواء اكان هذا الجسم موجوداً ام غير موجود الا عن طريق النظر

John Dewey

جون ديوي الأميركي

الذي تستند السلوكية في فلسفته العملية استناداً كبيراً

واللمس والسمع الى آخره ، وحتى هذه الظواهر التي تصل الينا لا يصح أن ندعوها جسماً لانها ليست كذلك . فما هي الا احساسات مستقلة عن الجسم كل الاستقلال ، وما هي الا من صنع نفوسنا . فعندما ترى امامك رجلاً وتسمعه وتلمسه فشعورك بوجوده لا يمت بصلة اليه لانهُ مايزال واقفاً بعيداً عنك مستقلاً عن نفسك الداخلية، وكل ما تعلمهُ عنهُ هو بضعة احساسات دقيقة رتبها جهازك النفسي وحاكها كما اراد حسب استعداداته وطاقته

ولنضرب مثلاً آخر يكون اكثر توضيحاً لهذه النقطة. لسان واقف بجانب ناقوس كبير يدق ويسمع هذا اللسان صوتهُ، فما هو هذا الصوت؟ هل الصوت شيء موجود في الطبيعة مستقل عن الانسان ؟ كلاَّ فان الصوت هو عبارة عن اهتزازات سريعة لجسم ما ، وهذه الاهتزازات تنقلها الينا حواسنا على انها صوت ، ولكن هذه الاهتزازات نفسها لو زادت سرعتها وقصرت موجتها قليلاً او كثيراً لما سمعناها مطلقاً ولانقلبت الى حرارة تكتوي بها ايدينا فيا لو لمسنا هذا الناقوس الذي تحدثنا عنهُ . والفرق بين الصوت والحرارة ليس شيئاً سوى ان الصوت ينتج من اهتزاز الناقوس كله واما الحرارة فتنتج من اهتزاز ذراته . فاذا زادت الاهتزازات ايضاً وقصرت موجتها لا يعود الناقوس يحدث صوتاً ولا يعود ساخناً فقط وانما يصبح منيراً كأنهُ مصباح قوي . كل هذا يحدث مع اننا لم نغير شيئاً من طبيعة الناقوس ولا من اهتزازاته، والواقع ان الاختلاف في هذه الحالة لا ينجم عن هذا الجسم وانما ينجم عن حواسنا التي ركبت فينا ، فانها هي دون غيرها التي تسمي بعض الاهتزازات صوتاً وبعضها حرارة وبعضها نوراً والواقع انها اهتزازات لا اكثر ولا اقل "

هاتان اذن الطريقتان — طريقة المشاهدة والدراسة الموضوعية وطريقة الاستبطان والدراسة الذاتية الداخلية . والسلوكية تصرُّ على ان تفضل الذاتية كل الاغفال ولا تريد ان تستخدم في علم النفس الا الطريقة الموضوعية. وبعبارة آخر لا تريد ان تسأل الموضوع المراد دراسته عما يحس او يشعر به، لانها لا تثق بشعوره او باحساسه ، وانما تعتمد فقط على ان تضع الموضوع امامها — انساناً كان ام حيواناً — وتشاهد تصرفاته في الاحوال المختلفة المتباينة، ثم تدوّن هذه المشاهدات وتبوبها وتستخرج منها قوانين عامة، وتزعم ان كل طريقة اخرى عدا هذه خاطئة ومغلوطة ومضللة ولا يصح الوثوق بنتائجها. والسلوكية تحمي باللائمة على كل العلماء الذين يستخدمون طريقة بخلاف طريقتها ، وتدعوهم دجالين ومشعوذين وخاضعين للاوهام والخرافات ، والفرق بين السلوكيين وغيرهم ينحصر في الواقع في هذه النقطة، وهي ان الاولين هم اصحاب طريقة واحدة — طريقة المشاهدة واما الآخرون فانهم يؤمنون بالطريقتين جميعاً

هذا هو جوهر الخلاف بين المدرستين، وهو في الواقع يدل على ان وطسون والسلوكيين من حذقه قومٌ متعصبون ضيقو افق العقل متعسفون لانهم يتعامون عن الحقائق بشكل يجعلهم غير صالحين للانتاج العلمي ويجعلهم حريين بأن يقصوا من حظيرة العلماء الموثوق بهم — يكون هذا شأنهم لعدة اسباب نذكر منها البعض على سبيل التمثيل لا غير

لا يثق وطسون بالموضوع المراد دراسته (الانسان مثلاً) ولا يحب منهُ ان يشرح ما يدور بنفسه زعماً منهُ ان هذه الطريقة هي طريقة ذاتية لا يوثق بها . حسن رضينا واتفقنا — انما نسأل هذا السؤال : — كيف يتسنى لنا اذن ان ندرس الانسان ؟ يقول وطسون شاهد تصرفاته . راقبهُ ودوّن ما ترى فقط . هذه هي الطريقة الموضوعية الموثوق بها ، والتي لا يتسرب اليها شيء من الذاتية (subjectivity) المبنية على الشعور والاحساس، وهذان يخضعان لمؤثرات كثيرة وعوامل مختلفة لا تجعلهما صالحين بحال من الاحوال لبناء الحقائق العلمية عليهما ، واستنباط القواعد العامة التي يصح ان نطبقها في جميع الحالات

وهنا لا يستقيم موقف وطسون مع المنطق والعقل ، لان القارئ يذكر اننا قلنا اننا لا نستطيع ان نتصل بالاشياء الا بواسطة حواسنا . انَّ وصفنا للاشياء هو في الواقع وصف لشعورنا نحن وللاحساسٍ من هذه الاشياء ، وانهُ عندما يتحدث الينا وطسون عن تصرفات انسان معين انما يتحدث الينا عما احسهُ هو نفسه وشعر به وتخيل ان هذا الانسان يفعله ويعمله ، فكأن وطسون يقول لنا « دعوا هذا الانسان وما يحسُّ به ، واصغوا اليَّ انا لاقص عليكم ما احس واشعر به انا عن شعور هذا الانسان واحساسه . وبمعنى آخر لا تثقوا بشعوره واحساسه بما في نفسه ولكن ثقوا بشعوري انا وباحساسي بما يفعله هو » وهذا بالطبع وجه الخطأ لانهُ اذا كانت الطريقة الذاتية خطأً ، فتكون خطأً عندما يستعملها وطسون وعندما يستعملها الانسان موضوع البحث على السواء . واما اذا كانت صواباً فتكون كذلك في الحالتين ، ويكون اعود علينا واجدى للعلم نفسه ان نترك الانسان المراد دراسة نفسيته يشرح لنا احساسه وشعوره

هذا من الوجهة الفلسفية ، واما من الوجهة العملية فالصعوبات كثيرة في سبيل نظرية السلوكية منها ان السلوكيين في مشاهداتهم لا يتوصلون الا الى الامور السطحية الظاهرة ، واما ما كان منها متصلاً بقرارات النفس الداخلية فلا سبيل لهم اليه . هم يرون الحركات والافعال ولكنهم لا يستطيعون ان يتوصلوا الى الدوافع النفسية والتوازع الداخلية التي بعثت هذه الحركات وتلك الافعال . ولكي نزيد هذه النقطة وضوحاً نروي الحادثة الآتية وهي تدور حول هذه النظرية، وليس بطلها احداً سوى وطسون نفسه وماكدوجال اكبر اعداء النظرية السلوكية

حدث أن دعت احدى جمعيات نيويورك وطسون وماكدوجال ليتناظرا في السلوكية ، وكان من الطبيعي ان يدافع وطسون عنها وان يهاجمها ماكدوجال ويبين اخطاءها الملازمة لها . قال ماكدوجال

تصوّر يا سيدي على ان ترفض كل شيء في علم النفس ، وتصر على أن تضع هذا الشيء خارج دائرة هذا العلم ما لم تشاهده بنفسك ، فكل شيء تراه او تشاهده وتقيسه وتتناوله بادواتك العلمية هذا تقبله وتجري تجاربك عليه ، واما ما لا تراه بعينك وما لا يقع تحت حسك فهذا ترفضهُ وتزعم ان لا صلة لهُ البتة بعلم النفس . هذا حسن . فلنقل اذن انك تتناول ابرة في يمينك وتغرزها في يدي ثم تشاهد استجاباتي لهذا المؤثر البغيض وتدوّن هذه المشاهدات . فعند ما تغرزها في يدي اسحب يدي بالطبع وباسرع ما يمكن فتشرع تتحدث عن الارجاع (الافعال العكسية reflex action) وتقول هذا الموضوع (اي ماكدوجال) سحب يده بسرعة عند ما وخزته بالابرة ، ثم تجرب هذه العملية في الوف من الايدي — ايدي رجال واطفال وسيدات وبنات وارجل الحيوانات ايضاً — وعند ما تجد ان ليس لهذه القاعدة شذوذاً ، وان كل من وخزت بالابرة يسحب يده بسرعة ، تقول هذه قاعدة علمية عامة لا شذوذ فيها وتشرع تضع هذا القانون العام « كل من وخز بابرة يسحب يده بسرعة » ثم تكتفي بهذا ولا تزيد عليه حرفاً ، واذا قلت لك اني احسست بالم عند ما وخزت يدي بالابرة تقول هذا لا يهمني ولا يقدم او يؤخر في الموضوع ، لان هذا الاحساس الذي تزعم ان تقصه عليَّ لا يمكن ان يدخل في حساب العلم الذي اعمل باسمه ، فهذا العلم في الواقع لا يعتمد على ما تحسه او تشعر به ولا يجب ان يقيم لهُ وزناً ، وكل ما يعنى به هو ما يشاهده من تصرفاتك في حال بينها — ذلك لانهُ علم موضوعي objective ويصر على ان يظل كذلك

تتناقل عن احساسي وشعوري يا سيدي ولا تريد ان تسمع مني حرفاً او تسمح لي بأن اعينك في مهمتك هذه برواية ما قد يكون خفي عنيك وما قد يكون من المستحيل ان تشاهده انت او تعرفه من غير ان اخبرك به ، ومع كل ذلك يا سيدي فلنتساءل معك ولنقل ان هذا حسن ايضاً . ولكن ماذا يكون رأيك . فيما لو تركت يدي حيث هي ولم اسحبها ؟ ماذا يكون شأنك وشأن العلم الذي تعمل باسمه لو وخزت يدي فوجدتني اقف جامداً في مكاني مبتسماً لا ابدي حراكاً كأن الامر لا يعنيني ؟ ماذا تكون قيمة مشاهداتك من الوجهة العلمية اذا زعمت ان هذا الموضوع (ماكدوجال ايضاً) لا ينطبق عليه قانونك العام الذي اكتشفته على طريقتك العلمية ؟ ماذا تفعل في هذه الحالة التي هدمت قانونك

العام هذا وذرّته مع الرياح وذهبت بآثاره وقوضت نظريتك من أساسها ؟ لا شيء يا سيدي، لا تستطيع ان تفتح فاك ، وما يبقى عليك الا ان تضرب بهذا القانون عرض الافق، وتسلم مع المتشككين بأنهُ قانون ليس علميًّا ولا يوثق به »

والواقع ان وطسون لا يستطيع الا ان يفعل هذا ويطعن هذا القانون في الصميم . لا يجد مندوحة عن هذا سوى ان يسأل الموضوع ويستوضحه الامر ويصغي اليه وهو يقص عليه احساسه وشعوره ، ويستقبل هذا الاحساس وذاك الشعور على ان لها قيمة حقيقية في الامر وعلى انهما مما لا يستغنى عنهما في علم النفس ، وبعبارة أخرى نجد مرة ثانية ان السلوكية لا يمكنها ان تغفل حساب الطريقة الاخرى — طريقة الاستبطان — لا بل يجب ان تستخدمها وتقبل على استعمالها كما يقبل باقي علماء النفس

وجدنا اذن ان وطسون يستبطن عند ما يصف لنا تصرفات الانسان شاهده ، ويستعمل هذه الطريقة لانا لم نشاهد تصرفات الموضوع كما شاهدها وطسون ، فيجب ان نثق بشعور وطسون واحساسه عند ما يقص علينا تصرفات الموضوع . هذا من جهة ، واما من الجهة الاخرى فاننا قد وجدنا ايضاً ان قانون السلوكية الاول والاساسي وهو مراقبة السلوك فقط لا غير — هذا القانون لا يمكن ان يجد سنداً من التجربة والمشاهدة وحدها ، بل يتحتم عليه — لكي يصير قانوناً علميًّا موثوقاً به — ان يرتكز على شعور الموضوع المراد دراسته وعلى احساسه ، وانه لا مندوحة لهُ عن ان يصغي للموضوع ويأخذ بكلامه . قبل ان تفعل السلوكية هذا الامر لا يمكن ان يكون لقوانينها القيمة العلمية التي تحب ان تدعيها لنفسها ، والتي تحاول ان تنفيها عن كل طريقة اخرى وخصوصاً طريقة الاستبطان

واذن فالطريقتان لازمتان لعلم النفس على الخصوص وللعلوم الاجتماعية على العموم وكل ما تقول به السلوكية بخلاف هذا هراء في هراء ، ولا يجب ان يقام له وزن في الدوائر العلمية ، لان مصيبة السلوكية انها متعنتة متعسفة لا تستطيع ان ترى وجهي الشيء الواحد في نفس الوقت ، فهي تصر على أن تتعامى عن احد وجهيه ، ثم تريد العالم على ان يتعامى مثلها

وهناك الناحية الفلسفية للنظرية السلوكية ، فقد توسطت في مقالات فلسفية بشكل استجلب عليها النقد المرير وجعل الاساسات التي ترتكز عليها واهية ، لا بل ذهبت في تعسفها الى اكثر من هذا ، واخذت تنكر الدين والعقل والنفس والفلسفة والتاريخ وعلم الاقتصاد الى آخر هذه القائمة

النظرية السلوكية لا تثق بشيء سوى بعلمي الطبيعة والكيمياء ، واما كل شيء آخر ماعدا هذين فهو هراء لا يستحق منها الالتفات

يعقوب فام
استاذ في التربية من جامعة ييل